في ذكرى الرافعي

طريقته في تأليف كتبه

للأستاذ محمد سعيد العريان

قلت عن طريقة الرافعي في تأليف مقالاته ما وسعني أن أعرفه بنفسي حين كنت أكتب له ؛ فقد أملى عليّ أكثر من مائة مقالة كنتُ شاهدَه فيها إذ يُلَقّى الوحيَ ، ويهذب الفكرة ، ويرتب المعاني ، ويتألّف الألفاظ ، حتى تنفصل عنه المقالة إلى نفس قارئها كما هي في نفسه[1]

وأحسب أن طريقته العامة في كل ما كتب من المقالات هي ما وصفتُ عن عيان وملاحظة ، ولكن لم يتهيأ لي أن أشهده حين يؤلف في موضوع من موضوعات العلم ، مما يقوم على التتبع والاستقراء ، وتقليب الصحائف ، وبعث الدفائن ، والارتفاق إلى الكتب ، والاستعانة بما انتهى إليه السابقون من حقائق العلم ونتائج البحث والروية ، ثم التهدّي من ذلك إلى رأي ينتهي بمقدماته إلى نتيجة .

وطريقة الكتابة غير طريقة التأليف ؛ أعني أن الطريقة لإعداد مقالة أو فصل أدبي من مثل « رسائل الأحزان » أو « السحاب الأحمر » أو « المساكين » — غيرُ الطريقة في إعداد كتاب مثل « تاريخ آداب العرب » ؛ فإن الشأن بين هذين مختلف باختلاف موضوعهما ؛ ذلك أن في كل نفس معانيها التي تعبّر بها عن الحب والبغض والقطيعة وما إليها من خلجات الوجدان أو مدركات الحس ، بأسلوبها وعلى مقدارها ؛ فما يحتاج الأديب لتصويرها وإبرازها إلى شيء غير الأداة الطبيعية التي يؤديها بها إلى الناس كلاماً مقروءاً يصل نفساً بنفس وينقلها من خطرة قلب إلى إدراك حس . أما تأليف الكتب العلمية فله سبيل غير هذه ، لأنه يقوم على الجمع والتفريق ، وعلى النقد والتصفح ، وعلى الاستقراء والملاحظة .

وأنا قد قرأت الجزء الأول من كتاب تاريخ آداب العرب منذ بضع عشرة سنة ، وألممت منه بما ألمت ، واهتديت به ما اهتديت ؛ ثم عدت إلى نفسي أسائلها : أين وأيان اجتمع لمؤلف هذا الكتاب هذا القدرُ من المعارف في شئون العرب والعربية فألّف بين أشتاتها في هذا الكتاب ؟

وظل هذا السؤال قائماً في نفسي زمناً ، وما أزال من مطالعاتي في الأدب القديم أقع على شيء بعد شيء في صفحات متفرقة من كتب عدة يُنسي آخرها أولها من تباعد الزمان بينها ، وكلها مما اجتمع للرافعي في كتابه . وكان ذلك يزيدني عجباً وحيرة ؛ فإنه ليس من الطبيعي أن يعرف إنسان كل من يراه في طريقه من الناس بحيث يتهيأ له أن ينسب بعضهم إلى بعض ويعرف القريب منهم والجنيب بما بينهم من تشابه في الخلقة ؛ ولقد يكون ممكناً أن يجلس أخَوان بإزائي فأعرف ما بينهما من النسب بالمشابهة والفراسة ، ولكن هيهات أن أهتدي إلى ذلك لو رأيتهما متفرقين على تباعد الزمان وانقطاع الصلة . من مثل ذلك كان عجبي وحيرتي

... وهممت أن أسأل الرافعي مرة ، ولكني لم أفعل ؛ وهممت أن أعرف بنفسي فلم أبلغ ؛ ثم عزوت ذلك إلى ذاكرة الرافعي وسرعة حفظه ؛ وقلت : متفرقاتٌ قد عرفها في سنين متباعدة فوعتها حافظته ، فلما هم أن يؤلف كتابه أمدته الذاكرة بما وعت منها ، وكان مستحيلاً عليه أن يجمعها لو لم تجتمع له من ذات نفسها ، واطمأننت إلى هذا الاستنتاج ونسبتُ إليه عدم ذكر الرافعي للمراجع التي استعان بها في هذا الكتاب ؛ لأنه يروي عن ذاكرته !

ثم قرأت له بحثه في (الرواية والرواة) ؛ فإذا هو يتحدث عن أثر الحفظ في مؤلفات العلماء وينادي بإحياء هذه السنة ، سنة حفظ العلم واستظهار كتبه[1] ؛ فتأكد لي ما رأيت ، وكان وهما من الوهم عرفت حقيقته فيما بعد ...

* * *

أما الحقيقة التي عرفتها بعد ، فما أزال في شك منها وإن كان برهانها ماثلاً لعيني ؛ ولكنه شك التعجب الذي يفجأه ما لم يكن يتوقع ...

منذ بضعة أشهر وكل إلي القيام على تصحيح بعض مؤلفات الرافعي التي تطبعها الآن إحدى دور النشر الكبرى في القاهرة ؛ فأخذت أهبتي للعمل ...

... وزرت المكتبة التي خلفها صاحبها أوراقاً مركومة وكتباً تستند إلى الحيطان ؛ أريد بذلك أن أبحث فيها عما يكون

(١) حياة الرافعي ص ١٨٠ — ١٨٦

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٣٢٢

هناك من مستدركات على بعض الكتب المطبوعة، فأزيدها عليها؛ وأبحث عن (أصول) الكتب التى لم تطبع بعد، فأرتب فصولها وأعدها للطبع. وفتحت أدراج الدولاب، فرأيت وعرفت السر...

رحمه الله !

ذلك جهد لا يقوى على مثله جند سليمان ولكنه قوىَ عليه وحده، ثم مات وخلّفه شاهداً على ما يذل فى حياته لخير هذه الأمة فلم يلق من يعرف يده !

وإلى القارئ أصف ما عثرت عليه :

يعرف قراء العربية أن كل كتب المراجع فى لغتنا ليس لها فهارس تعين الباحث على التماس ما يريده منها فى أقصر وقت، إلا بضع كتب من المطبوعات الحديثة؛ فالأغانى، والأمالى، والعقد الفريد، والكامل، والعمدة، والخزانة، والحيوان، والبيان والتبيين، وكتب الطبقات، وحتى كتب الفهارس والتراجم، ليس لها فهارس يمكن الاعتماد عليها عند البحث؛ فمن أصاب منها غرضاً فمن طريق المصادفة والاتفاق، أو بعد المطاولة وضياع الزمن؛ وحسبى أن أذكر أننى ذات مرة أنفقت ليلة كاملة فى البحث عن كلمة فى البيان والتبيين ثم لم أعثر بها فطويته على سأم وملالة؛ فلما كنت بعد أيام، وقد فات علىّ الغرض الذى كنت أقصد، فتحت الكتاب عرضاً فإذا الكلمة التى كنت أريدها أمامى...

هذه الحقيقة يعرفها كل من عانى مشقة البحث فى هذه الكتب؛ فهى كتب للقراءة المجرّدة لا للبحث والتنقيب العلمى. عرف الرافعى ذلك فاتخذ له طريقاً...

وكان أول ما صنع أن انتخب كل الكتب التى يعنيه أمرها فيما يعد له من البحث، فقرأها كلها قراءة درس؛ وهى كتب ليست بالقليلة، وحسب القارىء أن يعرف أن كل فصل فى كتاب تاريخ آداب العرب للرافعى قد اعتمد فيه على عشر مراجع من المطولات أو يزيد، ليدرك من ذلك كم كتاباً قرأ قبل أن يؤلف كتابه الذى ذكرت...

قلت إن الرافعى انتخب طائفة من الكتب. يرجو أن تعينه على البحث فقرأها كلها، أعنى نَفَضها نَفْضاً بحيث لم يفُتْه منها معنى يتصل بموضوعه

ثم شرع يعمل، فكتب لكل كتاب مما قرأ ملخصاً يضم المجلدات الكثيرة فى كراسة أو كراسات؛ يرجو أن تغنيه عن أصولها المطولة

ثم عاد إلى هذه الملخصات فرتب أجزاءها ترتيباً يضم القريب إلى القريب بحيث يجد طلبته عند النظرة الأولى من غير أن يتعب فى تقليب الأوراق

ثم كانت الخطوة الرابعة فزاوج بين ملخصات الكتب المختلفة يضم الأشباه منها إلى الأشباه

ثم كتب...

ثم عاد إلى المكتوب فقرأه قراءة الباحث: يزاوج بين رأى ورأى ليخرج منهما رأى ثالث... واجتمعت له من ذلك المقدماتُ التى تبلغ به النتيجة...

ثم كانت المرحلة الأخيرة هى التهذيب والصقل الفنى، من صناعة البيان وتحكيك الألفاظ وتجميل المعانى وتزيين الأسلوب

سبع مراحل بين البدء والنهاية... ثم خرج الكتاب لقارئه ليسائل نفسه فى عجب: أين وأبان اجتمع لمؤلفه ذلك القدرُ من المعارف فى شئون العرب والعربية فألف بين أشتاتها فى هذا الكتاب؟

سؤال كنت أسأله نفسى قبل أن أرى وأعرف وأضع يدى على تلك الأوراق التى كانت فى درج مكتبه فتكشف لى السر...

بين يدىّ الآن الجزء الثالث من تاريخ آداب العرب، أرجو أن أفرغ منه ليكون فى أيدى القراء بعد أيام؛ وهو كتاب ألفه فى سنة ١٩١١ أو قبل ذلك، ثم شغلته شئون الحياة عن إخراجه فخلّفه أوراقاً مصفرّة يكاد يبليها التقادم... فى هذا الكتاب وجدت مفتاح السر، وسيقرؤه قراؤه بعد أيام فيعرفون فى بعض فصوله أين بدأ مما انتهى وعند أى مرحلةٍ وقف... ثم يذكرون مؤلفه فيترحمون عليه...

... وفى مكتبته كتاب آخر أرجو أن يعينى الله عليه ما أعاننى على هذا الكتاب. وهناك غير ذلك كراسات عدة وأضابير مطوية. تلك هى الفهارس التى كتبها ثم استكتبها... ولكنها — فيما تبدو لى — ألسنةٌ خُرْس

* * *

قلت كانت المرحلة الأولى فى تأليفه أنه اختار طائفة من الكتب... وأقول إن أول ما اختار من ذلك كتب التراجم؛

(البقية على صفحة ٨٤٠)